غزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

— ١٦ —

الآن يصل أخونا « الضراوي » إلى النهاية البائسة التى وصل إليها إخوانه من قبل . فهم وهو ، يظلون متماسكين — بعض الشيء — وهم يدورون بالكلام ويلفون حول الأشخاص بالجمل المائعة والتعبيرات التى ينبت رأسها فى ذيلها — وبالعكس ! — حتى إذا بلغوا الحديث عن النماذج ، ولمسوا جانب الأحكام الأدبية ، « آن لأبى حنيفة أن يمد رجله » !

من كان ينظر إلى « الجمال » وينظر إلى « الحب » نظرة « العقاد » التى أسلفنا عنها الحديث فى مقالى « سارة » وفى مقالى « غزل العقاد » فهو خليق أن يسمعنا من « الغزل » — تعبيراً عن أثر الجمال والحب فى نفسه — أنماطاً أخرى غير ما عهدناه فى الشعر العربى قديمه وحديثه ، وأن يكون فى هذا الغزل صاحب « خصوصية » أولا ، وصاحب « فلسفة » شاملة ثانياً

وليقل بعض الجهلاء الغلاظ ما يشاءون عن فلسفة الشاعر ، ولينكروا أن يكون لكل شاعر كبير فلسفة خاصة ، يفسر بها الحياة كما تنطبع فى نفسه النموذجية ، لا نتيجة (التأمل) وحده كما يفهمون ، بل نتيجة الفطرة الممتازة كذلك ، ونتيجة الطبع المتفرد ، الذى تهبه الحياة لصاحبه ، وهى ترتقب منه دنيا جديدة يخلقها ، لا كدنيا الناس ، تضمها إلى متحفها الضخم الفريد

والعقاد فى غزله يجيبنا إلى ما نرتقب ، ويرتفع فوقه درجات ، ويحيل الدنيا — حين يحب — متحفاً حياً من الصور والحالات النفسية ، ومن شخوص اللحظات والليالى والأيام التى تدب وتتنفس وتحيا ؛ ومن الألوان والظلال التى تلقيها المواقف والآلام والأحلام والآمال ؛ ومن الأصداء المنبعثة من أوتار نفس متعددة الأوتار

هى دنيا عجيبة يعيش فيها القارئ بضع ساعات ، فيلتقى فيها بوجوه عدة ، وأنماط من الشخوص نادرة ، ويرى هناك نفساً — بل نفوساً — هادئة ثائرة ، راضية ساخطة ، بانية هادمة ، عالقة فى الرجاء ، وجاثية فى القنوط أو حيرة فى الشك والارتياب، ويجدها روحانية ترفرف بأجنحة من السماء تارة ، وبوهيمية تلهم تطوف الواقع تارة ، وكثيراً ما تجمع بين السماء والأرض فى قدرة كقدرة الخالدين

ولكن الميزة الكبرى لهذه النفس أنها تبدو صادقة فى كل حالة ، طبيعية فى كل وجه ، أصيلة فى كل سحنة . فليست هى فى حالة المتعة والاقبال بأقل منها فى حالة العزوف والادبار ؛ وليست هى فى ساحة الرجاء الطليق بأفضل منهـا فى حرج القنوط المطبق ، أو الشك الأليم ...

وتلك قدرة — أو موهبة — لا تتاح لكل شاعر كبير ، بل لعدد محدود من الشعراء الكبار ؛ فقد يكون شاعراً كبيراً وهو يمتاز فى ناحية واحدة من نواحى الاتجاهات النفسية الكثيرة ويرى الدنيا كلها فى ضوء هذه الناحية الممتازة فيه

ونحن لا ننصف الرجل حين نقول : إن الأوتار التى يوقع عليها الحب فى نفسه ، لم تجتمع قط لشاعر عربى ، ولا تجتمع لعشرة من شعراء العربية فى جميع العهود

ابن سيدة قال فى التعليق عليه : « ولا أعرف ذلك » ... على أن فقد المعرفة ليس بإنكار ولا تخطئة ، ولثعلب أن يكون له (عند) وما هو بظنين

وثم لفظان هما عسيّان أن يدخلا من هذا الباب ، وتصدق عليهما هذه الصفة ، ذانك لفظ الشجو ، ولفظ الوله . فقد أصفق اللغويون — وبينهم الكسائى — على أن شجاه : حزنه وطرّبه ضد . وذكر بعض منهم فى المعجمات أنه قيل : إن الوله يكون من الحزن والسرور . وأنا لم أجد حول هذا الذى قيل فى الوله مايعزز جانبه ، ولم أجع من صيغه ولا من صيغ لفظ الوله ما يسفر به وجه الاشتقاق ، فأحتسب الآن بالاشارة إليهما ، والتنبيه عليهما ، غير مبرم لهما قولاً ، ولا قاطع فيهما برأي

وقصارى البحث أن لفظى الروعة والطرب لا يدلان إلا على تأثر النفس بما يحرّك ما فيها من الباهج أو الكروب ، فالغناء يَرُوع ويُطرب ، والمغنّى رائع مطرب ؛ لأن روعة الغناء وطربه يستخفان الشاعر ؛ فتتبرج الفرحة الخفيرة أو يهتاجُ الأسى الكظيم ؟

محمد شوقى أمين

نحن لا ننصفه حين نتحدث عن اللغة العربية وحدها ؛ ولكنا نقول ذلك مؤقتاً ، لأنها اللغة التي تستطيع الحكم على آدابها حكماً تملك أدلته كلها ونجزم فيه بالصواب . وإلا فبين يدى معربات كثيرة لشعراء من الغرب مشهورين معروفين « كبيرون وشيلي والفريد دى موسيه وفيكتور هوجو » لا أرى فيها من تعدد الجوانب الصادقة الأصيلة ما أراه فى غزل العقاد وشعره عامة

وما أقول هذا وأقصد به إصدار حكم لا أملك كل مستنداته ولكنه توجيه لدارسى هذه الآداب ، ودراسة تنفع للحكم بين شاعر مصرى كبير ينالنا شرف سبقه وتفوقه فى هذه الميادين ، وبين شعراء العالم المشهورين المقروءين .

* * *

أول ما يطالعك فى غزل العقاد ـ وفى شعره عامة ـ اليقظة والوعى الفنى ، والانتباه لما يجول فى نفسه من الخواطر والأحاسيس ، وما ينبض به قلب من يحب من المشاعر والأشواق وما يحيط بها من أجواء وآفاق .

وينشأ عن اليقظة الاتجاه الفلسفى ، لتعميق الاحساس بالحب ، كما ذكر على لسان « همام » فى « سارة » وأسلفنا عنه الحديث . كما ينشأ هذا الاتجاه عن رأيه فى الحب والجمال ، وعلاقتهما بأغراض الحياة الكبرى ، ووشائجها بالكون فى آماله الفسيحة .

ولا مفر لمن ينظر هذه النظرة أن يجاوز التعبير عن خاصة نفسه فى الغزل ، إلى صلة حبه بالحياة والكون ، وأن تتسرب إلى هذا تجاربه وتأملاته فى الحياة ما دامت النفس الانسانية وحدة لا تقوم الحواجز بين أجزائها ومكنوناتها . فتتألف من ذلك كله فلسفة ، يحسبها السطحيون بعيدة عن الحب والغزل لأنه لم يكتب عليها لافتة (يافطة) تقول : « هنا عاطفة ! » ، ولأن الحب عندهم هو ذلك الظمأ والطوى ، الذى لا يمد كثيرا عن الحس الساذج القريب ، ولأنهم ذوو نفوس ضيقة ناضبة لما وتر ضئيل .

وليس فى غزل العقاد ولا فى شعره كله هالات وظلال ، (مما قد يكون جميلا فى شعر آخرين ليست لهم هذه الطبيعة) وليس هو ميالا للرمزية — وبخاصة كما يصورها بعض أتباع هذا المذهب فى هذه الأيام — واليقظة والوعى الدقيق ، والانتباه الصارم ، لا يناسب هذه الرمزية ولا يستريح إلى الايغال فيها إلا بمقدار .

ومثل العقاد فى هذا كمثل الجهاز السليم الدقيق ، يرصد الكواكب والسدم ، فيدركها واضحة محدودة عما حولها ، فعلام تكلفه أن يظهر لك فى الصورة ظلالا وأشباحا ، وهو يرى أضواء وشخوصا ؟ ألأن جهازا آخر مختلا أو ضعيفا ، أو على عدسته غشاوة يسجل تلك الظلال والأشباح ؟

نعم قد يظهر لك فى بعض الأحيان غشاوات وسحبا ، لأن هناك سدما غير واضحة فى ذاتها — لا فى عدسته — وهنا تكون الرمزية الصادقة التى تكفى لأنها لا تملك التصريح ، وتسجل الغشاوة لأنه لا سبيل إلى الوضوح

على أن هناك سبباً آخر لسلوك العقاد هذا المسلك فى الاحساس بالحياة والتعبير عنها فى وضوح دقيق ، ذلك هو فلسفته العامة عن الحياة

فالعقاد ليس من الشعراء الذين لا يجدون فى هذه الحياة المنظورة جمالا فيعمد إلى التوشية والتظليل ليدارى العيوب ويخلق المحاسن المتخيلة الغامضة ؛ أو يتركون هذه الحياة كلها ، ويرسمون من الخيال حياة أخرى ينشيها الضباب والدخان ، وتزينها التهاويل والأطياف !

إن هذه الحياة المنظورة جميلة عند العقاد تستحق الحب والالتفات ، وهى كذلك رفيعة تستحق التقديس والاحترام :

يا طالباً فوق الحياة مدى له ... يعلو عليها . هل بلغت مداها ؟
ما فى خيالك صورة تشتاقها ... إلا وحولك لو نظرت تراها

ومن المستحسن أن نوضح ماذا يعنى العقاد بالحياة المنظورة ، فهو يعنى بها الحياة فى كنهها وذاتها ، فى ماهيتها كقوة خالدة ، يراها وحدة من مبدئها إلى منتهاها ويضم إليها آلامها فى جهادها وأشواقها إلى غايتها ، وخطواتها إلى الدولم والكمال

هذه هى الحياة التى يهيم بها العقاد — كما هى — ويراها وافية بتحقيق مطالب الخيال والأشواق ؛ وليست هى حياة الساعة واليوم ، أو حياة الفرد والجيل المحدود

وهذه الحياة — عنده — «روح نفسها بيد من المادة» ، ولا انفصام — بل لا اختلاف — بين القوة والمادة فيها ، وقد يرهن العلم فى محاولاته الأخيرة على صدق هذه النظرة بالفطرة السليمة ، فما الذرات التى تتألف منها المواد إلا كهارب موجبة وسالبة ينشأ من تعادلها وجود المادة فى الحس ، وليس ما يعرف فى الطبيعة «بالمقاومة» إلا قوة تعارض قوة ، أيتهما زادت طاقتها تغلبت وظهرت

ومن هنا ينشأ احترام العقاد للجسم في عالم الجمال ، أو ما اصطلحنا على أن نسميه « جسما » وهو طاقة من قوى الحياة تتمثل فيها للحس ، وتلمس باليد . ولهذا فحين يبلغ الحس غايته يجعل من المحسوسات أرواحاً ، ويحيل المتع كلها روحية علوية :

ما نعيم يمنح الكف غذاء المهجات ؟
تقصر الألباب عنه وهو بعض اللمسات
في يدي أدعوه خصراً تارة أو زهرات !
في فمي أدعوه ثغراً تارة أو قبلات !

والسماء والأرض — على هذا — متقاربتان في الحياة . أنظر إلى الحياة في قيودها وضروراتها فأنت منها في أرض جاثية. وانظر إليها في آمالها وأشواقها ، فأنت منها في سماء طليقة . وهي هي الحياة في أرضها وسمائها وحدة لا تتجزأ ، مقبولة الأعذار ، مغفورة الزلات ، محبوبة المباهج ، مرموقة المناظر ، لأنها الحياة !

ومن شأن هذه الفلسفة ألا تلجأ إلى الألغاز والمعميات ، ولا إلى الأشباح والخيالات ، ولا إلى الظلال والنشاوات ، إلا حيث يكون هذا كله جزءا من كنه الحياة وقبساً من طبيعتها . وذلك لأنها تواجه الحياة بخيرها وشرها ، وتعترف بهذا الخير والشر كمزاج أصيل لها ، وتدرك ما فيها من جمال حقيقي موجود ، لا غاية بعده لوهم ولا لخيال

* * *

وقد استطردنا في بيان فلسفة العقاد العامة ، فسقنا فيها بعض خصائصه في غزله وهي « التوحيد بين متعة الحس ومتعة النفس أو بين الأرض والسماء » . ثم دعانا هذا الاستطراد إلى تأجيل الأمثلة التي نأخذ منها دلائل اليقظة والوحي الفني . والآن فلنأخذ في إيراد الأمثال :

يقول في قصيدة بعنوان « تبسم » :

تبسم فإن القلب يسعد بالذي سعدت به واضحك وغرد وخاطر
يلذ لنا منك اغترارك بالصبا غرور الصبا روح لقلب الحاذر
ويعجبنا أنا نري فيك معجبا مدلا على الأيام إدلال ظافر
بشوشاً تكاد العين تلمح قلبه وتسرد في نجواه نظم السرائر
إذا غامت الجلى تبلجت بينها تبلج ومض البرق بين المواطر
وتضحك والأتراح حولك جمة
تخافك خوف الجن رجم الزواهر
وتبكي وأفراح الحياة كثيرة يحاذرنا من حولنا كالطوائر
فياقرب مابيني وبينك في الهوى ويابعد شتى دارنا في الخواطر
طوى الحب ما بيني وبينك من مدى
فنحن قرينا موطن متجاور
أيامن رأى ليلاً وصبحاً تلاقيا وإلفين من صفو وشجو مخامر
لئن تخش مني الليل صعباً مراسه
لقد بت أخشى منك شمس الهاجر
فيالي من ليل بحبك موثق
وثاق الضواري في كناس الجآذر
تطالع منه الهول سهلا مقاده رخاء غواشيه ، شجي الزماجر
ويارب مرهوب السطا وهو مطلق
إذا كف أضحى متعة للنواظر
أنا الليل فاطرقني على غير خشية
ولج باب أحلامي وجل في حظائري
وسر حيث يخشى غيهب الليل نفسه
وتمثر بالظلماء ظلماء كافر (١)
لتعلم ما الدنيا إذا غال غولها وأنت أمين من طروق البوائر
وتعلم أن الشمس تكذب قومها إذا حدثتهم عن خفي وظاهر
فكم بين لألاء الضحى من مناظر طوتها يد الأحداث عن كل ناظر

فها هنا رجل يحب ويعبر في غزله عن هذا الحب ، ولكن اليقظة التي ابتعثها الحب في نفسه وفكره جميعاً تجعله يتنبه إلى خصائص نفسه وخصائص من يحبه ، ويلمح الفروق الواضحة بينهما التي يؤلف منها الحب وحدة ونظاماً ؛ ثم تدخل في المضمار فلسفته العامة ونظرته إلى الحياة قيودها وطلاقتها ، ضروراتها وأشواقها ، فيتألف من ذلك كله غزل ناضج فريد على غير مثال

ومن حق الأدب علينا أن نشرح هذا كله في تلك الأبيات

يعجب العقاد في حبيبه بالجمال ، ولكنه لا يقف عند هذا الذي يدركه كل شاعر — وإن أدركه هو على نحو خاص — فإنما يعجب فيه أكثر باغترار الصبا ، والإدلال على الأيام إدلال ظافر ، والبشاشة التي لا تفرض وجوداً لعبوسة الحياة

وإلى هنا يمكن أن يصل شاعر ممتاز . ولكن ما يعجب العقاد في هذا هو معنى أبعد وأرق . إنما يعجبه من هذه الغرارة

(١) اسم من أسماء الليل

والبشاشة ، غلبة الحرية على الضرورة فى هذا الجيل ، وغلبة الفرح الطايق على الانقباض الحبيس ، وغلبة البشاشة الراجية على العبوسة اليائسة

ثم يلقى نظرة أخرى على هذين القلبين اللذين جمع بينهما الحب ، فاذا أحدهما يضحك والأتراح حوله جمة ، وثانيهما يبكى وأفراح الحياة حوله كثيرة ، وهى مفارقة من مفارقات القدرة الخالقة فى الحب ، التى تهزأ بالظواهر والأشكال وتمزج بين العناصر أبعد ما تكون طبيعة وكنها . ويلتفت من هذا إلى أثر هذا المزج العجيب ، فاذا قلبه المرهوب بمـا فيه من آلام وجماح ، وقد غـدا مروضاً مذللاً بهذا القلب الآخر المشرق البشوش ، فصار مأموناً لا يرهب ، كما تشاهد الضوارى موثقة فتكون مسلاة ، وكانت وهى طليقة تبعث الرعب والفزع

ثم ينتهى من هـذا إلى أحسن تعبير عن اطمئنان صاحبه إليه ، والتذاذه بكشف مجاهل نفسه وغيابها ، فى ظل الحب وحراسته وأمنه فيدعوه أن يجول فى هذا القلب الوعر المرهوب ليستمتع بمشاهدة الخطر المأمون ، ويعلم أن الشمس لا تكشف إلا الدنيا الظاهرة ، وأن ليس غير الحب يكشف أعماق القلوب

مثل هذا لن يفهمه من يفهمون الغزل لهفة ودموعاً ، أو فرحة واستمتاعاً؛ ولن يفهمه بطبيعة الحال من يريدون عواطف الحب قالباً مصبوباً من غزل العذريين أو البوهيميين فى الشعر العربى المحدود . ولكنه أحق قول باسم « الغزل » وأدخل قول فى العاطفة اليقظة المشبوبة ، المنيرة بالحب حتى تكشف ما حولها ، وتضمه بجناحيها

ويقول فى قصيدة بعنوان : « المغنم المجهول » :

يا من عليـــه تلهفى وتلددي   قد جرت فلتهنأ بأنك جائر
وأريتنى مالا ترى ، ووهبتنى   ما لست تملكه . فما لك شاكر
علمتنى سر الحياة وسرها   خاف عليك : جليله والضامر
إن الضياء يُرى العيونَ ولا يَرى   والحسن يوقظ وهو غاف سادر
فلئن بخلت بمـا ملكت فحسبنا   مالست تملك . فهو عندك وافر !
أنسيتنى نفسا وقد أذكرتنى   نفسا . وخيرهما التى أنا ذاكر
لكشفت باطنها فقد أنكرتُها   لـما بدا منها القرار الغائر
فامنح وصالك أو قلاك فإننى   راض بكلتا الحالتين وصابر

وهنا أيضا شاعر يتغزل، ويقول فى أول هذه القصيدة ما ينتظر من شاعر مثله في الحب والجمال ، ووصف هجر حبيبه وما يمسه فى نفسه من إحساس ، ثم يتيقظ إلى ما أثاره هذا الحب فى نفسه ـ مع الحرمان ـ وأنه وهبه ما كان مخبوءا عنه فى أطواء نفسه ، لا يعلم حتى هو بوجوده ، وأن هذه هبة لا يملكها الحبيب الهاجر، لذاته ولا لصاحبه ، وأنها مغنم جليل يعوض عن المتاع والوجدان .

وندع العقاد نفسه يعبر عن هذه المعانى أدق تعبير حين يقول :

« إذا اعتلجت بالنفس عاطفة قوية أثارت رواكدهـا ، واستفزت رواقدها ، فانكشف للانسان من نفسه مالم يكن يعرف ، واختبر من قواه وطباعه ما كان خافيا عنـه ، فصحح نظره فى الحياة ، وتغيرت بين يديه حقائق الأشياء فرآها كما ينبغي له أن يراها ، لأن معرفة النفس مقياس معرفة الوجود ، ومن أخطأ تقدير نفسه لم يصب فى تقدير ما حوله ، لأنه يقيس الأشياء بمقياس مختل مجهول

« والحب أقوى العواطف وأعمقها تفتيشاً فى النفس . فهو ينبه فيها الاعجاب والعبادة والبغض والألم والغيرة والاحتقار والشفقة والقسوة ، وكل ما تشتمل عليه من حميد الخصال وذميمها ؛ فاذا وقف الانسان على حقيقة نفسه ، وقف على كل حقيقة يتاح له الوقوف عليها . وكان الجمال له معلماً يستفيد منه ما لم يعلمه الجمال نفسه ، ومنعما يهبه ما لا يملك ! كالشموس والأقمار التى تضيء العين المنظورات ، وهى بلا عين تبصر أو نفس تشعر؛ فاذا خسر الانسان فى الحب غرضاً أراده ، ربح منه غرضاً لم يرده، وكان ما جاءه من الربح عفواً أكبر مما توخاه عمداً »

وهذا القول نفسه دليل من أدلة اليقظة التى يبعثها الحب فى نفس العقاد اليقظة « المركبة » التى تتيقظ وتعرف أنها تتيقظ فى الوقت ذاته . وهذا نادر فى النفوس

* * *

وبين يدى ثلاثون مثالا على ما ذكرت على هذه الخاصة فى غزل العقاد ، بل لدى غزل العقاد كله يصدق هذا الكلام ، ولكن حسبي المثالان السالفان ، وإلى مقال آخر نستعرض الخصائص الأخرى هذا الاستعراض (١)

« الاسكندرية »   سيد قطب

(١) وقعت فى الكلمة الفائتة أغلاط ملحوظة ، وقد وقع مثلها فى الكلمات السابقة ، ونحن لا نرى فائدة تذكر من التصحيحات اللاحقة . وما دعانا لهـذا التنبيه إلا تعنت بعض المتصفين الأخلاقيين الذين يتقولون الخطأ كما يقع ويستغلونه ! فنعرض عن هذا التصرف الصغير .